الإسلام دين لا دولة

للدكتور زكي مبارك

أعترف بأنى مُقبل على متاعب فى تحرير هـذا البحث ، لأنى أكره أن يكون ضرباً من الحديث المُعاد، وما تريد « الرسالة » فى مثل هذا العدد أن تعيد كلاماً فرغ منه الناس منذ أجيال .

وأعترف أيضاً بأنى لا أجهل الفرق بين حياة الباحثين لهذا العهد وحياة من سبقوهم فى سالف العهود ، فالمسلمون فيما سلف كانوا يقسمون الجمهور إلى قسمين : قسم العوامّ وقسم الخواصّ ؛ ولم يكن العامىّ هو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، كما نقول اليوم ، وإنما كان العامىّ هو الذى لا يدرك من مرامي القرآن والحديث ما يستطيع به تعقّب أقوال الباحثين بالتعديل والتجريح ، ولهذا كان يتفق أن يسير فى العصر الواحد آراء تختلف وتقتتل بدون أن يشعر أصحابها بأنهم مهدّدون بسوء القالة بين الناس ، إلا أن يكون فى آرائهم ما يؤذى الخلفاء أو الملوك أو الوزراء ، وهؤلاء أيضاً كان لجبروتهم حدود ، لأنهم كانوا فى الأغلب من أكابر الرجال ، وعلى علم بالزائف والصحيح من الآراء .

أما اليوم ، فمن حق من يقرأ ويكتب أن يعدّ نفسه من الخواصّ ، وأن يتعقّب الباحثين فى الشئون الدينية كيف شاء ، ولو لم يتفق له الاطلاع على كتابٍ واحد من كتب الفقه والحديث

وأقول بعد هذا التمهيد : إنى سأفترض قلمى باحثاً يقف من الإسلام موقف الحياد ؛ فقد مضى الزمن الذى كان يقال فيه : « اللهمّ إيماناً كإيمان العجائز » ؛ فذلك الإيمان لا ينفع فى هذا الجيل ولم يبق له مكان . وأنا أعتقد أن الرجل الذى يكفر بعد اجتهاد الأقوياء ، أقرب إلى الله من الرجل الذى يؤمن بعد استسلام الضعفاء . وهل تهون العقول على واهب العقول ؟

وإنما يقف قلمى من الإسلام موقف الحياد ، لأنى أريد أن يقوم هذا البحث على قواعد علمية لا خطابية ، فهو موجّه إلى قراء اللغة العربية ، وفيهم ألوف من غير المسلمين ، ومراعاتهم واجبٌ مفروض ، ومن الحتم أن يخاطَبوا بالعقل قبل الوجدان .

يضاف إلى هـذا أن الإسلام كان فى جميع أطواره ثورة عقلية ، فمن أراد من أبنائه أن يجرده من تلك المزية ، فهو عدوّ يلبس ثوب الصديق .

ثم أواجه الموضوع فأقول :

لكل دين من الأديان خصوصيات وعموميات : فالخصوصيات هى اللطائف التى يتعارف عليها أبناء الدين الواحد بعضهم مع بعض ، ولا يرضيهم أن تذاع لضعفها عن مقاومة النقد العنيف ؛ أما العموميات ، فهى الأصول التى يجوز نشرها بين جميع الناس ، لقدرتها على مواجهة التحامل بشجاعة وكبرياء .

والظاهر أن « الخصوصيات » هى الطور الأول من أطوار التدين ، فقد كان التدين فى نشأته لوناً من الانحسار عن المجتمع ، وهو يوجب الانفراد والانزواء ، ومن هنا كانت كلمة « الدين » مرادفة لكلمة « السرّ » عند الأقدمين . ومن هنا أيضاً كانت « العزلة » من ضروب التعبد ، لأنها من فنون الاستخفاء ... ألم تسمعوا أن الصوم عن الكلام كان من العبادات فى كثيرٍ من الديانات ، مع أن الكلام هو أساس التفاهم بين المتعاملين من الأحياء[1] ؟

والنفرة من الزواج عند قدماء المتدينين لها صلة وثيقة بهذا الغرض ، وقد أصابت الفطرةُ الشعبية فى مصر حين سمّت الزواج « دخول الدنيا » ، وإنما كان ذلك لأن الزواج فى العُرف القديم لم يكن يأتلف مع التأهب للفناء فى الدين

ومن هذه النقطة يتشعب حديث اليوم

فالنبى محمد قد اقترن بتسع نساء ، وقيلت فى تعليل هذه

(١) رأيت فى « الدير المحرق » راهباً حبشياً صام عن الكلام ثلاثين عاماً ، وأظنه لا يفطر قبل أن يموت !

الظاهرة أقوال ، وأصح تلك الأقوال أنه أراد توكيد الصلات بينه وبين بعض القبائل والشعوب

ولكن يظهر أن من الممكن أن نلتمس تعليلاً غير ذلك التعليل ، كأن نفترض أنه أراد أن يقضى قضاء مبرماً على الوهم الذى يقول بأن التدين لا يأتلف مع الزواج ، وما كان ذلك « وهماً » من الأوهام ، وإنما كان « حقيقةً » من الحقائق فى صدور الأحبار والرهبان ، وإليهم كان الأمر فى مصاير الناس من جهة الدين والأخلاق

ولكن محمداً كان يؤمن بأن من واجبه أن ينقل المفهومية الدينية مع وضع إلى وضع ، ولا يتم ذلك بغير ثورة على الترهب ، ثورة ماحقة ساحقة تنسف الرهبان إلى طوائف الخصيان ، وتصدهم عن الاستهزاء بالمؤمنين المتزوجين ، فكان له ما أراد

ومحمد بشهادة خصومه كان من نماذج الفتوّة العربية ، والفتى العربى يرى الرجال قوّامين على النساء ، وإذاً ، يجب أن يتصل بالدنيا اتصال معاش ، ليكون رب البيت بحق وصدق ، ولتخضع له نساؤه خضوع العبد الطائع للسيد المطاع ، والرزق يذلّ أعناق الرجال ، فكيف يصنع بقلوب النساء ؟!

وماذا كانت صناعة محمد قبل أن يكون نبيًّا ؟

كان تاجراً ، والتجارة هى المختبَر الصادق لأخلاق الرجال ، وقد جاز الاختبار بنجاحٍ مرموق .

وماذا كانت صناعة محمد بعد أن صار نبيًّا ؟

أظنه قال : « جُعِل رزقى تحت ظل رمحى »

ومعنى هذا أنه صار فارساً يعيش مما تُغلّ الرماح والسيوف ، وذلك أكرم أنواع العيش ، وما يليق بنبىّ أن يكون عالةً على الأتباع ، ولو كانوا من شرفاء الأغنياء .

وبإقبال محمد على الزواج صار نبيا مدنيًّا ، وصار مسئولاً عن الاتصال بالمجتمع صلةً معاشية ، بعد أن اتصل به صلةً روحية .

ومن المؤكد أن صنيعه هذا قوبل فى عصره باندهاش ، واستغراب ، لأنه كان « بدعة » فى عُرف رجال الدين ، ولأنه كان اعترافاً صريحاً بأن « الدنيا » مطلبٌ لا يعيب من يتجه إليه من الأنبياء

والذى يراجع الأصول الأولى من الدين الإسلامي — وهي الأصول التى سبقت التفريع والتشقيق — يروعه أن يرى الإسلام يقتصد فى شرح معاملة الإنسان مع الله ، ويهوله أن يراه يطنب فى شرح المعاملات مع الناس .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الإسلام يمزج بين هذين المطلبين ، ومعناه أن حسن المعاملة مع الناس هو المظهر الصادق للخوف من الآثام والشبهات ، وبدون الصدق فى هذه المعاملة لا ينتفع المؤمن بصلاة ولا صيام ، والله يتسامح فى حقوقه ولكنه لا يتسامح فى حقوق الناس .

ومن أعجب العجب أن نرى القرآن يُنطق السابقين من الأنبياء بأقوال يتكرها بعض أتباع أولئك الأنبياء .

فما تأويل هذا المنطق ؟

التأويل سهل ، فالقرآن ينزه جميع الأنبياء عن أوهام الأتباع والأشياع ، وما تحدّث القرآن عن نبىّ إلا عرفنا أن الدعوات الصوادق لا تسلم من التصحيف والتحريف .

وبقليل من التأمل ندرك أن ذلك ليس من الغرائب ، فوضوح النصوص الدولية لهذا العهد فى المخابرات والمعاهدات لا يمنع من أن تصير من الألغاز عند اشتجار الأغراض ، فما ظنُّكم بنصوص دينية جرت فى الأصل مجرى التلميح تجنباً للعدوان والاضطهاد ؟

والمقام لا يتسع لغير فرضين اثنين : فرض يوجبه الأدب وهو القول بأن القرآن وحىٌ من عند الله ، وفرض يجيزه الجدل وهو الظن بأن القرآن من صنع محمد ، والفرض الثانى فرعٌ سنشير إليه بعد لحظات .

فعلى الفرض الأول يكون القرآن هو الفَيْصَل فى تقرير مذاهب الأنبياء ، وعلى الفرض الثانى يكون محمدٌ أخضعَ الأنبياء فى أقوالهم وأفعالهم لمذاهبه الذاتية فى الوصل بين الدين والمدنية .

وأنا فى حيرة بين هذين الفرضين ، ولو كنت من خصوم الإسلام لاخترت الفرض الأول واسترحت ، فليس من الكثير أن يضاف محمد إلى الأنبياء ، ولكن الكثير حقاً أن يصل رجلٌ غير ملهَم إلى الوصل بين العلم والمدنية ، وهو غرضٌ كان يجب أن يتنبه إليه كبار الأنبياء . و « البلية » كل البلية أن الناس عجزوا عن تخيُّل نظام يكون أفضل من نظام الإسلام ، وهو النظام الذى يوجب أن يوزع المرء قواه بين ثمرات الأرض وأنوار السماء .

الإنسانية أجمع تحتقرُ الرجل المنزوى فى الكهوف ، والإنسانية أجمع تبغض الرجل الذى لا يعرف غير اقتناص الأموال ، والإنسانية أجمع قد اتفقت على أن الإنسان الكامل

هو الرجل الذى يأخذ نصيبه من الدنيا مع الاحتفاظ بنصيب فى الدين

ومحمد هو صاحب هذا الرأى ، وبه « ادّعى » على زعم أصحاب هذا الفرض أنه خاتم الأنبياء . ومن هذا الملحَظ ندرك كيف صار خاتم الأنبياء ، فمن العسير أن نتصور نظاماً أفضل من النظام الذى شرعه محمد عن طريق الوحى أو طريق الاجتهاد .

هنالك فرضٌ ثالث ، وهو أن تكون الضمائر الإنسانية تجمّعتْ وابتدعت هذه الشخصية المحمدية ، لتكون الرمز الذى يصور مثلها الأعلى فى الوجود .

ويمنع من هذا الفرض مانعان حصينان ، أحدهما تاريخىّ وثانيهما فلسفىّ .

فمحمد حديث العهد فى التواريخ النبوية ، ولم يمض من الزمن ما يسمح بجعله شخصية معنوية ، كالذى قيل فى بعض الأنبياء ، أو بعض الحكماء . ألم يَشُكّ قومٌ فى وجود المسيح وسقراط ؟

أما الجانب الفلسفى فهو يضايق خصوم الإسلام ، لأنه يجعله سريرة وجودية ، وعندئذ يكون من الحتم أن يكون أعظم دين عرفه الوجود .

للباحث المنصف أن يدير هذا البحث كيف شاء ، فلن ينتهى إلا إلى ما انتهينا إليه ، وهو القول بأن شريعة محمد خير شريعة عرفها المجتمع الإنسانى ، فهى إذاً منحة ربانية تستوجب الحمد والثناء . وهل يصدر مثل هذا الفيض إلا عن صاحب العزة والجبروت ، وهو الذى منح « إنسان العين » على صغره قوة تخترق أجواز السماء ، بغض النظر عن فضله العظيم فى إضاءة العقول والقلوب ؟ ثم ماذا ؟

نترك إلى الباحثين المنصفين درس هذه المعضلة بنور المنطق والعقل والعدل ، وننتقل إلى شرح الاصطلاح المعروف بالتطبيق ، فكيف كان الإسلام بعد موت الرسول ؟

شرّق الإسلام وغرّب ، وجرَتْ بين أهله أحداثٌ وخطوب ، حتى جاز القول بأن فريقاً من المسلمين أخطأوا فهم الغرض من الدين الحنيف

وفى حومة ذلك الخطأ نشهد ظاهرتين بارزتين بعنف وطغيان :

الظاهرة الأولى هى الاهتمام باللغة العربية اهتماماً يتمثل فى المؤلفات التى تُعدّ بالألوف ، ويتمثل فى قول بعض الفقهاء بأن الصلاة بغير اللغة العربية عملٌ مردود

أما الظاهرة الثانية فهى الإقبال المنقطع النظير على درس الجوانب المدنية من التشريع الإسلامى ، ويمكن بسهولة أن نقول إن « القانون المدنى » لم يشهد فى جميع أدوار التاريخ شرّاحاً أعمق من الشرّاح المسلمين ، جزاهم الله خير الجزاء ، فهم الحجة الباقية على أصالة العبقرية المدنية فى الأمم الإسلامية

وأرجع إلى الظاهرة الأولى بشىء من التوضيح فأقول :

كان المسلمون يرون أنّ لا سلامة للعالم إلاّ بوجود « لغة دولية » يتفاهم بها أهل الشرق وأهل المغرب ، وهل قام فى الدنيا نزاع إلا بسبب انعدام التفاهم بين الناس ؟

وما زال المسلمون يساورون هذا الفرض حتى تحوّل إلى عقيدة دينية ، فصح عندهم أن « اللغة العربية أحسن اللغات » ، وأن الصلاة بغيرها لا تجوز ، وأنها ستكون لغة أهل الفردوس . والمسلمون يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن رحمة الله مقصورةٌ عليهم ، وأن طمع سواهم فى الجنة لا يزيد عن طمع إبليس ، وتلك غاية الغايات فى الإيمان بأن « الدين عند الله الإسلام »

ذلك التصور اليوم قد يعدّ من ضروب الخيال ، ولكنه كان حقيقة عند المسلمين الأولين ، وبفضل تلك الحقيقة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التفوق الملحوظ على أكثر الممالك والشعوب .

والغريب فى هذه القضية أن المسلمين الذين آثروا لغتهم بذلك التقديس قد تحرروا فى فهم أغراضها تحرراً لا يعرفه أبناء اليوم ، فقد كانوا يستبيحون إنشاد أشعار المجون فى المساجد وفى أعقاب الصلوات ، وكانوا يرون خصومهم فى هذه الحرية الأدبية قد « تنسكوا تنسكاً أعجمياً » ، ولذلك شواهد يضيق عنها هذا المجال

قد تقول : وما الموجب لهذا التناقض الغريب ؟

وأجيب بأنهم أرادوا أن يجعلوا اللغة العربية لغة مدنية لا لغةً دينية ، واللغات المدنية تتحدث عن جميع الشؤون ، ولا تسكت عن شرح العواطف والأحاسيس والأوهام والأضاليل . ألم تروا كيف اتسعت مساجد المسلمين لشرح أشعار النصارى واليهود والصابئين ؟

ويتفرع عن هذا ما جاء فى التواريخ الإسلامية من أعمال الرجال ، فالإسلام كُتلةٌ واحدة ، فكما تقول فى جد عمر بن الخطاب : حدثنا فلان عن فلان ، تقول فى هزل عمر بن أبى ربيعة : حدثنا فلان عن فلان . وهل ثبت فى أىّ ملة أن رجال الدين تحرروا من التقاليد فقالوا فى الجمال الذى يطوف بالأماكن المقدسة معشار ما قال الشريف الرضى فى قصائده الحجازيات ، وكان

أمير الحج بتفويض من خليفة المسلمين ؟

يجب الاعتراف بأن الإسلام أعطى أبناءه حريات لم تعرفها سائر الديانات ، لأنه لم يكن ديناً فحسب ، وإنما كان ديناً ومدنية

ويجب الاعتراف بأن التطاول على هذا الدين لا يقع إلا من الأوشاب والمأجورين ، فما كان إلا نعمة نورانية جاد بها الله على هذا الوجود

وماذا أقول في شرح الظاهرة الثانية ، وهي الاهتمام بما في التشريع الإسلامي من الجوانب المدنية ؟

تنقسم كتب الفقه إلى قسمين : قسم العبادات وقسم المعاملات

ويلاحظ من يقرأ كتب الفقه أن المؤلفين يترفقون في شرح القسم الأول ، ثم ينطلقون كالسهام عند شرح القسم الثاني ، وتظهر براعتهم في تشريح دقائق المعاملات

وهنا نكتة تستحق التسجيل . فرجل الدين في الفرنسية يوصف بأنه Religieux ، ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس

فكيف أمكن لرجال الدين من المسلمين أن يكونوا أئمة في شرح القوانين المدنية ؟

يرجع ذلك إلى روح الدين الإسلامي ، وهو دين يدعو جميع أبنائه إلى الاندماج في المجتمع ، ويقهرهم قهراً على الأخذ من منافع الدنيا بنصيب ، ليعرفوا الدقائق من شؤون الناس وهم قضاة الناس . وهل يصلح القاضي للفصل في نزاع لا يحس له شبيهاً في حياته المعاشية ؟

كان يقال إن أحق الناس بالإمامة في الصلاة وفي القضاء هو المتزوج ، ويرجح زوج المرأة الجميلة ، لأنه أقرب إلى التعفف ، بفضل ما يملك من الجمال الحلال

وأقول إنما قُدِّم زوج المرأة الجميلة لأنه يعاني من المتاعب أضعاف ما يعاني سواه . فهو أعرف بشؤون المجتمع ، وأقدر على فهم شؤون المعاش

وأقول أيضاً إن تنقل الفقيه من أرض إلى أرض كان يزيد في قيمته التشريعية . فالشافعي له مذهب جديد ومذهب قديم بسبب تنقله بين مصر والعراق

وأقول كذلك إن الرحلة كانت شرطاً في التفوق العلمي عند الأسلاف لفضلها الظاهر في الاطلاع على دقائق العادات والتقاليد

والقول الفصل أن رجل الدين عند المسلمين لم يكن من رجال القوانين المدنية إلا لأنه كان يساير المجتمع ويراوحه ويغاديه بلا انحسار ولا انقباض

وهل أستطيع القول بأن في الدين الإسلامي أقطاباً كانوا من كبار الأغنياء ، ومن المتصرفين في المتجرات والمزروعات ؟

إن الصوفية أنفسهم وهم الغاية في الزهد لم يملكوا الفرار من المجتمع ؛ فقد كانوا مسئولين أدبيًّا عن تدبير المعاش للمريدين . أليس من العجب أن نقرر أن أصدق ما كُتب في آداب التجارة والزراعة والصناعة هو ما صدر عن أقلام الصوفية ؟

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم أمضي إلى آخر الشوط فأقول :

أحب المسلمون دنياهم فأقبلوا عليها بنَهم وشراهة ، فماذا جَنَوا من ذلك الحب ؟

كان امتحاناً قاسياً عنيفاً إلى أبعد حدود القسوة والعنف . فقد عرفوا به أنْ لا بقاء للحياة بدون أخلاق ، فكيف كان نصيبهم من شرح دقائق الأخلاق ؟

لا أزعم أني قرأت جميع ما كُتب عن الأخلاق في جميع الديانات ، وإنما أقرر أني اطلعت على مجلدات كثيرة في الأخلاق المنسوبة إلى رجال الدين من غير المسلمين ، فما وجدت لها حرارة تشبه النار الموقدة في الكتب الإسلامية ، فما سبب ذلك ؟

المصلح المسلم تكتوي يده بنار المجتمع في كل يوم ، فهو يسكب دم قلبه على القرطاس ، وهو يتحدث عن واقع لا عن خيال ، فهو يقول رأيت وغيره يقول سمعت ، وما أبعد الفرق بين الرؤية والسماع !

الأخلاق في الكتب الإسلامية منقولة عن تجارب شخصية لا روايات خيالية ، وما خطَّ مسلمٌ حرفاً في الأخلاق إلا وهو يتمثل مشاهد حية من بني الناس بعضهم على بعض بلا رحمة ولا إشفاق

معاملة المسلم مع الله تنحصر في هذه الكلمة الوجيزة

« أعبدِ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

أما معاملة المسلم مع الناس فلها ألوف وألوف من الدقائق والتفاصيل .

فهل كان ذلك إلا لأن الإسلام أول دين عُنِيَ عنايةً صريحة بالشؤون المدنية ؟

قد يقال : وكيف جاز أن يُسفَّ المسلمون بعد التحليق ؟